

الصورة الشعرية عند

صور الموافف الإسلامية المبيدة ننجلر في فصائد هذا الشاعر

أي حسن الصورة والشارة.

وقد صوره صورة حسنة، فتصور: تشكّل.

وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة، ومنه الحديث: «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة، قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئة، وعلى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا، أي هيئته، وصورة الأمر كذا، أي صفته فيكون المراد بما جاء في الحديث أنه أتاه في أحسن صفة، ويجوز أن يعود المعنى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أتاني ربي وأنا في أحسن صورة خاصة، وتجرى معاني الصورة كلها عليه، إن شئت ظاهرها أو هيئتها وصفتها، فأما إطلاق ظاهر الصورة على الله عز وجل، فلا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. انتهى».

ومما يستدرك عليه :

المُصَوِّر، وهو من أسماء الله الحسنى، وهو الذي صوّر جميع الموجودات، ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة منفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها.

والصورة : الوجه، ومنه حديث ابن مقرب: «أما علمت أن الصورة محرمة» والمراد بها المنع من اللطم على الوجه، والحديث الآخر: «كره أن تعلم الصورة»، أي يجعل في الوجه كي أو سمّة.

وتصوّرت الشيء: توهّمت صورته فتصوّر لي.

والتصاویر: التمثيل.

وصار بمعنى صوّر، وبه فسر أبو علي قول الشاعر:

بناءً وصلب فيه وصاراً .

قال ابن سيده: ولم أرها لغيره.

هذا عن المعنى اللغوي، أما المعنى الاصطلاحي، فللصورة أكثر من معنى حيث قيل: «إن حد الصورة: هو التأليف في المصوّر، ثم إن أطلقت الصورة على المصوّر كان تجوزاً،

لم يكتب النحوي الشعر من باب الترف، وإنما كتبه للتعبير عن قضية معاشة، يعانيتها كما يعانيتها ملايين المسلمين المهجرين عن أوطانهم، مثلما يعانيتها ملايين المسلمين المقيمين أيضاً، لأن مأساة المسلمين عامة؛ ولأنهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو، فالألم الموضوعي يؤثر على الأعضاء كافة، وقوة العقيدة الإسلامية عند النحوي أمدته بقوة معنوية، أنقذته من الانهيار أمام تيار الأحداث، وحولته إلى نبع متدفق العطاء، حيثما حل وحيثما رحل، ودواوينه وملاحمه تحكي قصة العطاء. وهو لم يتوقع ضمن حيز إقليمي محدود، بل تفاعل مع القضايا الإسلامية في عموم بلدان العالم الإسلامي، من فلسطين إلى كشمير إلى أفغانستان إلى البوسنة والهرسك، فما إن يفتح جرح من جراح العالم الإسلامي حتى يهرع النحوي مواسياً، داعماً يرفع الهمم، ويذكر بأُمجاد الأجداد، وقوتهم من بعد ضعف، وانتصاراتهم بعد الهزائم.

ونحن سنقتصر هنا على بحث الصورة الشعرية الإسلامية، في شعر الشاعر عدنان علي رضا النحوي، ونبدأ بتعريف الصورة.

المعنى اللغوي: يقول الزبيدي في تاج العروس، مادة: «صور» الصورة، بالضم: الشكل، والهيئة، والحقيقة، والصفة، ج: صوّر، بضم ففتح، وصوّر، كعنب قال: شيخنا وهو قليل، كذا ذكره بعضهم.

قلت: وفي الصحاح: والصوّر، بكسر الصاد: لغة في الصوّر، جمع صورة، ويشتد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوّاري:

أشبهن من بكر الخلاء أعينها

وهن أحسن من صيرانها صورا

وصوّر، بضم فسكون.

والصير، كالكيس: قاله الفراء، قال: يقال: رجل صير شير،

عدنان النحوي

بقلم / محمود السيد الدغيم (*)



الفنية» (٣).

■ عالم واسع،

وهنا يجب أن نشير إلى أن الصورة الفنية موضوع خلاف بين المثاليين والماديين؛ لأنها مضافة إلى الفن، والفن موضع خلاف أيضاً؛ لأن «الفن: شكل نوعي من أشكال الوعي الاجتماعي، والنشاط الإنساني، يعكس الواقع في صورة فنية - حسب رأي الواقعيين - وهو واحد من أهم وسائل الاستيعاب والتصوير الجمالي للعالم.

وترفض الماركسية التفسيرات المثالية للفن، على أنه نتاج وتعبير عن (الروح المطلق) و(الإرادة الكلية) و(الإلهام الإلهي) والتصويرات والانفعالات اللاشعورية للفنان...» (٤).

وهنا يتضح قصور الفكر الماركسي الوجودي. يمكننا بعد هذا الكلام أن نقول: إن القصيدة كاللوحة الفنية، تتكون من أشكال وألوان، وبدلاً من استخدام الألوان والخيال البصري في اللوحة الفنية، فإن الشاعر يستخدم صوراً عديدة تنقل القارئ والسماع إلى عالم الشاعر الواسع. وقد تكون الصورة تقليدية أو مبتكرة، محببة أو منفرة، وتعدد الصور وتناسقها، هو الذي يحدد الإطار العام للقصيدة.

إن الصور الإسلامية التي تتجلى في شعر النحوي، هي صور الماضي المجيد، صور العزة والكرامة التي يوظفها الشاعر، من أجل رفع المعنويات، وتجاوز العقبات، مذكراً بالأجداد السالفة كقوله:

والمسجد الأقصى على ساحاته

وُلد الزمان فعزَّ بالميلاد

جُمعت بساحته النبوة والتقت

بالغيب فيه معالم الأَشهاد

أَلقت لأحمد بالإمامة فارتقى

سبعاً بومضة بارق صفاء

وتوسّعاً كما يُقال للموهوب: هبة، وللمسروق: سرقة» (١).

«صورة الشيء: ما يؤخذ منه عند حذف الشخصيات،

ويقال: صورة الشيء: ما به يحصل الشيء بالفعل.

الصورة الجسمية: جوهر متصل بسيط لا وجود لمحلّه

دونه، قابل للأبعاد الثلاثة المدركة من الجسم في بادئ النظر.

الصورة الجسمية: الجوهر الممتد في الأبعاد كلها

المدرك في بادئ النظر بالحس.

الصورة النوعية: جوهر لا يتم وجوده بالفعل دون

وجود ما حل فيه» (٢).

وقال الفلاسفة الماديون: «الصورة الفنية: منهج معين

يستخدم في الفن، لترديد الواقع الموضوعي في شكل حي،

ومتعين وحسي يمكن إدراكه بطريقة مباشرة، في إطار مثل

أعلى جمالي محدد. وتختلف الصورة الفنية في عدد من

الفروق عن المفاهيم العلمية، أو الأفكار السياسية، أو المبادئ

الأخلاقية، فهي تمثل وحدة متداخلة بين الحسي والمنطقي،

المتعين والمجرد، المباشر وغير المباشر، الجزئي والكلي،

العرضي والضروري، الخارجي والداخلي، الجزء والكل،

المظهر والجوهر، الشكل والمضمون.

فإن الوحدة الجدلية بين هذه الجوانب المتعارضة - حين

تعالج بالوسائل الملائمة لكل - تؤدي إلى صور من

الشخصيات والأحداث والملابسات، التي تعبّر عن أفكار

وعواطف جمالية محددة، وتنقل أفكاراً وانفعالات سامية،

ويقوم التخيّل بدور غير عادي في تصوير الصورة

● أشعار ملتهبة تُبرز أبطال

الإسلام في صور تليق بكفاحهم

فإذا ربك جميعها مجلوة
بالنور في عُرْس وفي أعياد
أهديت للإسلام ملكاً خالصاً
يلقاك في بشر وفي إسعاد
من ذا ينازعه ومَهْرُك في الوري
غال ودونك حُومة الأساد
تسعى إليك على الزمان كتائب
نفحت علي عطفك عطر جهاد
فجنود أحمد أرعدت عَظَافَةً
تختال بين طوارف وتلاد (٥)
هكذا تجتمع صور الماضي الإسلامي المجيد، مع صور
الحاضر، في سياق يستنهض همم المعاصرين، لتحقيق أمجاد
تحاكي أمجاد السلف.

ردي روابي الصين أين قتيبة
والسور تَهْدُ حوله الفرسان
حملت إليه من تراك حِفْنة
صيد يجر أنوفها الإذعان
ردي روابي الهند أين شريعة الر
حمن من سلطانها السلطان
كم كان يَبْرُق في ديارك نورها
أمناً! فغاب فأين منك أمان (٦)
ولا يتوقف عند نقل صور الأمجاد الإسلامية في الهند
والصين، وإنما يصل إلى بغداد.

دار السلام وأي لحن لم يكن
شكوى بدارك إن شدت بغدان
ذكرى لدجلة والفرات وساحة
غناء تخفق عندها الألحان
ثم يعرج على الأردن فيقول:
تمضي ربي الأردن بين مياها
ذكرى يعيد رواءها الجريان
ذكرى تمر بكل خفقة موجة
أو زهرة فاحت بها عمان (٧)
ويتابع تنقله بين الأقطار الإسلامية، مصوراً أيام عزتها
ووحدها وأمجادها الغابرة، موضحاً صور المآسي وصور
الأمجاد:

ما بال أندلس تجف ورودها
شجنأ! أصوح عندها البستان
مجلوة ولطارق منك الهوى
تهوي وتصرع دونك الأقران
يُهدي لك الأمجاد من أنصاله
وتصاغ من أمجادك التيجان (٨)
ويزاوج الشاعر بين الحاضر المؤلم والماضي المشرف،
عارضاً صورة الماضي المشرقة وصورة الحاضر المحزنة:

فيا أيها الأقصى أنينك موجع
حنينك أصداء العصور الغواير
وشوقك دُوب الخاليات من الرؤى
لرنة أنصال ووقع حوافر
وخفقة رايات وعزة فاتح
يموج صداها في دوي الحناجر
عصرت غني الذكريات بدمعة
على هُذب تقضي ونوح سرائر
فيا عمر الفاروق أين صدَى الخطي
إلى المسجد الأقصى وإشراق زائر
وأين طيوف المجد حولك والتقي
وأندأؤه رفت على كل زاهر (٩)
ويستعيد صور الجهاد الإسلامي المشرف والتعأس
الحاضر المذل فيقول:

أبتاه هذي الشام فانزل روضها
حُراً لتلقي شيممة وخلالا
المؤمنون من المنابر أطلقوا
مدد الجهاد وأقبلوا أرتالا
زحفت ضفاف النيل يدفق موجها
وضفاف دجلة والفرات قتالا
وتلفتت منك الضلوع لكي ترى
مكراً يحاك وخدعة وختالا
سكتت بنادقنا وغاب دويها
ومضوا على ساحاتها فُقَلا
ضاعت فلسطين النذية فاندي
يا نفس من حُلم الجفون خيالاً (١٠)
وتبرز صور الإيمان بكتاب الله، دستوراً هادياً حيث يقول:
إن قرآننا يبين درباً
لهدانا وقد وعاهها اللبيب
وسيبقى ربيع كل فؤاد
شدوه في هداه خفق رتيب
دققة القلب دعوة لإله
قادر للدعاء نغم المجيب
إنما الحب في الإله حياة
وهو أجدى مما يشير الطبيب
يا طبيب القلوب ذلك قلب
بهدي الله خفقه والوجيب (١١)

ويبرز الشاعر صورة المسلم الخاشع لله الذي يرجو من
الله تحقيق الآمال، فيرفع عقيرته بالدعاء بطرف داعم وقلب
خاشع.

إلهي: وفي نفسي أردد حاجتي
وبين ضلوعي همسة اللهفات

● الإيمان بكتاب الله دستوراً هادياً، له دلالاته الموحية عند عدنان النحوي



لا يزال التاريخ يدفعه النصر
وبينيّه مؤمن وشهيد
والنبوات آية الله يُجلى الحق
في نورها ويُجلى الوجود
تصل الأرض والزمان فتحتد
مواثيق أمة وعهود
يا لحق جذوره ضربت في الأرض
وامتد ساقه والعود
إنه جوهر الحياة وفيض
عبقري وفاءه والجود (١٤)
ثم تتوالى صور فلسطين السلبية، بأشجارها وطيورها،
ومواكب فتوحها الإسلامية:
يا ظلال الزيتون همسك تاريخ
خ ونجواك شعلة ووقود
والسواقي ولؤلؤ نشرته
من حصاها ملاحم وجنود
والعصافير لحنها أيقظ الفج
ر فغنته أعصر ونجود
موكب بعد موكب وفتوح
رفرفت في بطاحها وبنود
كل عطر عليك دفته شوق
من دم صبه الكمي النجيد

وبين جفوني من بريق ضراعتي
معان لها ماجت على العبرات
على شفتي الهمس والجهر والصدى
يرجع ما في القلب من كلمات (١٢)

■ صور لائقة:

ولا يفوته إبراز أبطال الإسلام بصور جذابة، تستنهض
الهمم لإعادة تشييد المجد، فيذكر صلاح الدين الأيوبي بقوله:
نداء صلاح الدين ملء حواضر
وملء زمان زاهر بشهادة
أولئك إن شئت الجدود فسلمهم
لعلك تلقى الصدق بين رفات
وهذا صلاح الدين مجد مؤثّل
على الصدق منشور على صفحات (١٣)
وتبرز صور الروابط الإسلامية، فلا فارق بين العربي
المسلم، والكردي المسلم، والتركي المسلم، فهي هو ذا يناجي
السلطان المظلوم عبدالحميد:

سلام على عبدالحميد وقد مضى
على الطيب من أمجاده العطر
فيا أيها السلطان ذكرك عاطر
على صدق ما جاهدت في حلبات
دعوت إلى حق وخضت سبيله
وما لنت من طعن ومن غمرات
دعوت إلى دين يوحّد أمة
ويجمع نغمى عيشة وممات
دعوت إلى الإسلام ينكر فرقة
ويهدم من كفر ومن شبهات
مضيت وما لانت قناتك بينهم
وما وهنت نفس على شهوات

هكذا تبرز صورة القائد المسلم عند الشاعر النحوي،
مزدانة بصور الفضائل الإسلامية المحببة.

هكذا تتوالى صور الماضي الإسلامي المجيد، وصور
قيمه الخالدة، وإلى جانبها تبرز صور الوضع الإسلامي
الحالي، النابضة بالآلام، المحاصرة بالعدوان الخارجي
والداخلي، في ظلال الإحجام عن الأخذ بزمام المبادرة،
لحماية الفضائل الإسلامية، وتبرز الصور عنده بشكل مباشر،
في قصائد الملاحم، ففي ملحمة «على أبواب القدس» تبرز
صور فلسطين أرض النبوات حيث يبدؤها بقوله:

عانقي المجد واخفقي يا بيد
كل يوم على بطاحك عيّد
راية بعد راية وزحوف
في ميادينها وفجر جديد

أنت حق الإسلام لؤلؤة الإيب

مان يزهو بك العلا ويروء (١٥)

ثم تتوالى صور الإسراء والمعراج، والهجرة النبوية وما تلاها من غزوات، تجلت فيها بطولات المسلمين، الذين قدموا الأرواح فداءً للإسلام والمسلمين، وتتوالى صور الماضي الإسلامي المشرق:

رقت الصخرة الشريفة لما

أقبلت طلعة وأشرق عيد

فجلاها ولم يزل من هواها

عبق يماؤ الزمان وعود

ففتوح الرسول تاج على الدهر

ر وهذي لألى وعقود

هكذا يضفي الشاعر على الصخرة طابع الحيوية والحركة، رابطاً إياها بالفتح، ثم يعرج على كارثة الحروب الصليبية، ولكن عون الله وعبقريته صلاح الدين وتضافر المسلمين كان حائلاً دون استمرار تلك الكارثة، التي تشبه ما نعانیه اليوم، ونحن بأشد الحاجة إلى تطبيق ما فعله صلاح الدين الأيوبي:

أقبل يا عصور هاتي صلاح الد

ين فالدار شوقها مشهود

يا لحطين زلزلت ملّة الكفر

فأهوى ركن لهم وعمود

عبقري الجهاد أنت صلاح

الدين سيف من الهدى ممدود (١٦)

ثم يعرض صور الكارثة الحديثة، وتخلي الزعماء عن الجهاد، وبقاء ثورة أطفال الحجارة وحيدة في الميدان:

وقف الطفل وحده والليالي

ورصاص من حوله وجنود

وقف الطفل والحجارة أكوا

م وعيناه عرمة وصمود

والشعارات كلها سقطت في الأر

ض وغابت حناجر ورعود

أنت يا طفل وحدك في الساج

فأين الأنساب؟ أين العهود؟

وقف الطفل عند بابك يا قد

س ونادته من هناك الحدود

وتلاقت أصداؤها وطيوف

بين عينيّه حومة وبنود

وعجاج تشقه طلعة النص

ر وإشراق فجره والعيد

ورباط لله ينشـره الوحـ

ي وتمضي طيوفه والشهود

يطلع الفجر من دم سكّـبته

في الروابي ملاحم وجنود (١٧)

وتتكرر صور الماضي الإسلامي المشرق في الملاحم السبع التي كتبها الشاعر النحوي، وتتوارد الصور توارداً تاريخياً، يتضمن صوراً تقليدية، وشيئاً فشيئاً تحلّ صور الهزائم محل صور الانتصارات، كما يجري العكس أحياناً، وفي الملاحم جميعها دون النحوي عرضاً تاريخياً لموضوع الملحمة نثراً، ثم أعقبه بالملحمة الشعرية، وبهذا يكون قد وضع القارئ في الجو العام للملحمة، مما يسهل فهم ما تحمله الملحمة من أخبار الأحداث المجهولة من غير المتخصصين.

وفي الملاحم يتجلى إحساس الشاعر بآلام أبناء الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها. حيث نقرأ ملحمة الغرباء، وملحمة القسطنطينية، وملحمة الجهاد الأفغاني، وملحمة فلسطين، وملحمة الأقصى، وملحمة الإسلام في الهند، وملحمة البوسنة والهرسك - الجريمة الكبرى، و«على أبواب القدس» من الفن نفسه، وإن لم يعطها الشاعر عنوان الملحمة.

وفي كل هذه الملاحم تتكرر الصور الإسلامية بشكل متناسق، يحفز الهمم ويستنهض النيام، لاسترداد الأمجاد الإسلامية.

الهوامش،

(■) شاعر سوري مقيم في لندن، محرر بجريدة الحياة. له عدد من الدراسات في الأدب والحضارة الإسلامية.

(١) كتاب الحدود في الأصول، تأليف ابن فورك، الحد رقم ٢٢، ص ٤، تحقيق الدكتور محمد عبدالحليم، منشورات جامعة لندن، ١٩٩١م.

(٢) كتاب التعريفات، تأليف الشريف الجرجاني، ص ١٣٥-١٣٦.

(٣) الموسوعة الفلسفية السوفياتية، ص ٢٧٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٥٤.

(٥) ديوان الأرض المباركة، ص ١٥٩-١٦٠.

(٦) ديوان الأرض المباركة، ص ٢٠٠.

(٧) نفسه، ص ٢٠١.

(٨) نفسه، ص ٢٠٣.

(٩) موكب النور، ص ٦٩-٧٠.

(١٠) نفسه، ص ١٢١.

(١١) نفسه، ص ١٢٢-١٢٣.

(١٢) نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(١٣) نفسه، ص ١٦٢-١٦٣.

(١٤) على أبواب القدس، ص ٢٢٢.

(١٥) نفسه، ص ٢٢٣.

(١٦) نفسه، ص ٢٤٨.

(١٧) نفسه، ص ٢٦١-٢٦٢.

ملاحم نصور
أخزار الأمة
في مشارق
الأرض
ومغاربها



جراحات

وَحَطَّ المشيبُ فما يردُّكَ زاجرُ
مازلت تشفق الصبا وحديثه
تهنم بل تُسبِك - طي قصيدة -
وإذا سمعت تأوهاً من ساهر
وتظل يُسلمك الحنين إلى الأسي
أقصرُ فما أنت الذي يبدي الهوى
جاء الصليبيون ثانيةً فما
تخذوا من الإسلام لُعْبَتَهُمْ وفي
وتجبل طرفك؛ يستجيرك مسلم
ومساجد التوحيد يسكنها الأسي
وتدافع الأعداء نحو عقيدتي
يا مسلمون وكم أذوق مرارة
هانت عليكم أرضكم ودماءكم
أم هان دين؟ هل تهون عقيدة
أم هان مجد قد تسامى للعلا؟
يا مسلمون إذا تراءت ومضة
أنتم قليل؟! أم غثاء ساقه
«فردوسنا المفقود» يكبر حزنه
واليوم أرض تستباح جديدة
وصغارنا الأبرار يذبحها العدا
لا تحسبوا أنني جمعت جراحنا
أنا قد أذبت قليلها بقصيدتي
أنا ما كتبت قصيدتي ونشرتها
هي صرخة مكتومة أطلقتها
هي قطرة من بحر حزن ما له
لا تحسبوا شعري خيلاً شارداً
يا قومنا مهما تداجي ليلنا
ولسوف يطلع فجرنا من جرحنا
ولسوف يأتي النصر يرقاً دمعاً

مازال يشجيك الخيال العابر
وتروك الذكرى ولبك حائر
ذكرى حبيب أو زمان غابر
تُبدي التأوه حين طرفك ساهر
وتبيت تشكو حين يشجو طائر
وجراح دينك نزعها متواتر
يغنيك طرف أحور وظيفائر
أمجاده يُقعي حَقُودَ كافر
يرديه قتلاً - دون ذنب - غادر
وبحضنها دُبح الشيب الطاهر
ليردنا عنها عدو ماکر
وتغور في قلبي مدى وخناجر
أم هان عرض حين عريد سادر؟
غراء؟ أعوزها معين ناصر!
واليوم حاز المجد كُفْرُ سافر
يغتالها - في لحظة - متآمر؟
ريح.. لمنحدر.. وسيل هادر
تاريخه تلقى عليه ستائر
والعرض دنسه اللئيم الفاجر
وكأنهم غنم يسوق الجازر
ورمت بها فوق السطور مشاعر
فجراحنا ضاقت بهن دفاتر
حتى يكافئني عليها الناشر
حتى يبلغها شعور ناثر
حد وفيه الحزن موج هادر
يا جرح قلبي!! ما يقول الشاعر؟
فلسوف تأتي للصباح بشائر
فجراحنا منها تخاف دياجر
وتعود راياتي وسيفي الباتر

شعر: محمد فؤاد محمد علي